

رخص الحياة ...

طه حسين

جريدة الجمهورية

١٣ نوفمبر ١٩٥٤

لم تَهُنْ الحياة على الناس كما تهون عليهم في هذه الأيام؛ فقديمًا عرف الناس الحرب وأَجَرُوا دماءهم غزارةً في سبيل الحق حينًا وفي سبيل الباطل أحيانًا. وقديمًا عرف الناس المكر والكيد كما عرفوا البغي والعُدوان، وقتل بعضهم بعضًا جهراً مرة وغيلة مرارًا. ولكنهم كانوا يُقَدِّمُونَ على ما كانوا يُقَدِّمُونَ عليه من ذلك في كثير من التَحَرُّجِ قبل أن يُقَدِّمُوا، وفي كثير من الندم والروع بعد أن يُتِمُّوا ما أقدموا عليه.

كانت الحياة الإنسانية شيئاً له خطره؛ فقد سَنَّتْهَا الديانات، وعرفت حرمتها القوانين، ورعتها الأخلاق، وعظَّم أمرها المعتدون عليها أنفسهم، فكانوا يرون أنهم حين يجترئون عليها إنما يقتربون إثماً عظيماً؛ لأنه من الآثام التي لا سبيل إلى تداركها.

فقد أُتِيح للإنسان أن يُصلح كثيراً من خطئه، ويتدارك كثيراً من ذنوبه، ويمحو بالإحسان آثار الإساءة. ولكن شيئاً واحداً لم يُتَحَ له: وهو أن يَرُدَّ الحياة إلى من حُرِمَ الحياة. فكان القتل خطأ أو عمداً من الشر العظيم الذي يروع الإنسان ويملاً قلبه ذعراً وروعاً وندماً وإنكاراً.

وكان الناس يتحدثون فيكثرون الحديث عن المجرمين الذين يستحبون القتل ولا يحسون عليه بعد اقترافه ندمًا، ولا يُحِسُّونَ منه قبل اقترافه رهبةً أو خوفًا.

كانوا يرونهم شذاً قد أفلتوا من قوانين الطبيعة الإنسانية التي

تكبر الحياة الإنسانية، وتعظم الاعتداء عليها عن عمدٍ أو خطأ. وربما دفع بعض الناس إلى شيء من الإمعان في إكبار الحياة حتى تجاوزوا بها حياة الإنسان إلى حياة الحيوان نفسه، يرون أن الحياة جذوة مقدسة لا يجرؤ على إطفائها إلا الذين برئوا من شعور الرفق والرحمة والبر والحنان. فحرّموا على أنفسهم أشياء استباحها غيرهم من الناس، يُحرّمون ذلك على أنفسهم دهرهم كله أو يُحرّمون ذلك على أنفسهم وقتاً معلوماً بين حين وحين.

ولأمر ما أمعن أبو العلاء فيما أمعن فيه من الزُّهد، حتى أنفق أكثر حياته لا يطعم إلا ما تُنبت الأرض. ولأمر ما رأى قتل الحيوان جبناً، ورأى فيه دليلاً على ضيعة النفس التي تدفع الاستعلاء على الضعف والبغي على ما لا يملك أن يدفع عن نفسه البغي والعدوان. وقد تحدّث الذين ترجموا له أنه مرض مرة وألح عليه المرض حتى اضطره إلى ضعف شديد، فوصف الطبيب له أكل الدجاج، وامتنع هو على الطبيب وعلى الذين كانوا يمرضونه. فلما اشتد عليه إلحاحهم أذعن لما أريدَ عليه وقُدّمت إليه دجاجة، فلم يكد يمسها حتى أخذته رعدة شديدة، فأنصرف عنها وهو يقول لها: «استضعفوك فوصفوك، هلاً وصفوا شبل الأسد!»

يريد أن الدجاجة لا تستطيع أن تمتنع على من يريدّها؛ فالناس يطمعون فيها ويصفونها للمرضى، على حين يَمنع الأسد شبله، فلا يطمع فيه طامع ولا يصفه طبيب لمرضى. ولأمر ما قال أبو العلاء فيما قال هذا الشعر الرائع في تحريم الحيوان على الإنسان، فعرّض نفسه لشر عظيم من غضب السلطان:

غدوت مريض العقل والدين فالقني لتسمع أنباء الأمور الصحاح
فلا تأكلن ما أخرج البحر ظالمًا ولا تبغ قوتًا من غريض الذبائح
ولا بيض أمّاتٍ أرادت صريحة لأطفالها دون الغواني الصرائح

ولا تفجعنَّ الطير وهي غوافل بما وضعت، فالظلم شر القبائح
ودع ضرب النحل الذي بكرت له كواسب من أزهار نَبَتِ فوائح
فما أحرزته كي يكون لغيرها ولا جمعته للندى والمناخ
مسحت يدي من كل هذا فليتني أبهت لشأني قبل شيب المسائح
فأبو العلاء — كما ترى — يخرج على نفسه ويريد أن يخرج على
غيره أكل الحيوان، وما يُخرجه الحيوان؛ حتى الشَّهْد الذي تخرجه
النحل، يرى ذلك ظلمًا وبغيًا، ويخالف بذلك ما أباحت الديانات
السماوية للناس من هذا كله. وقد انتهى شعره هذا إلى مصر فناظره
فيه داعي دعاة الفاطميين، وكاد الأمر ينتهي به إلى العطب.

وتقديس الحياة الإنسانية هو الذي دعا الناس إلى إكبار الموت وما
بعد الموت، وهو الذي دعا الناس إلى إعظام حرمة الجنائز مهما
تَكُنْ. وقد رُوي أن جنازةً مرَّت بالنبي صلى الله عليه وسلم وهو
جالس في أصحابه، فقام لها وقام أصحابه لقيامه، ثُمَّ قيل له إنها
جنازة يهودي، فقال: «أليست نفسًا؟!»

وتقديس الحياة كذلك هو الذي دفع إلى ما شاع في هذا العصر
الحديث من إنكار عقوبة الإعدام مهما تَكُنْ جريمة من يُقضى عليه
بهذه العقوبة. ويرى أصحاب هذا الرأي أن الحياة أعظم خطرًا وأكبر
حرمة من أن يستبيح الإنسان لنفسه سلبها، ويرون أن الحياة شيء
لا يستطع الإنسان أن يمنحه، فلا ينبغي له أن يسلبه، وإنما يَسْلُبُ
الحياة من منح الحياة.

وكذلك أمعن الناس في تقديس الحياة، وفي إنكار البطش بها
والاعتداء عليها. وما زال أمر الله قائمًا بتحريم الحياة إلا بحَقِّها، وما
زالت القوانين تُحرِّم الاعتداء على الحياة وتعاقب عليه أشد العقوبة
وأصرمها. ولكن الدين والقوانين شيءٌ وما دُفع الناس إليه في
حياتهم الحديثة شيءٌ آخر، وليس من شك في أن الناس لم يعرفوا

قط عصراً هانت فيه حياة الناس على الناس كهذا العصر الذي نعيش فيه.

تخالف الدول عن أمر الدين والقوانين فتتقدم على الحرب المنكرة التي لا تعرف لحياة الأفراد والجماعات حرمة، ولا ترجو للدين ولا القوانين ولا للأخلاق وقاراً، ولا تفرق بين الجند المسلحين المشاركين فيها والعزل الوادعين الذين لا يريدون حرباً ولا قتالاً، ولا يتمنون إلا أن يعيشوا في دعة وسعة، يحتملون أعباء الحياة ما خف منها وما ثقل، لا يؤذون أحداً ولا يحبون أن يريدهم أحد بالأذى. وإغراق الحرب الحديثة في الإثم واستهانتها بالحياة واستخفافها بالمقدسات وإشاعتها للموت والهول بغير حساب؛ كل ذلك أهدر قيمة الحياة أثناء الحرب وأهدر قيمة الحياة أثناء السلم أيضاً.

وما دام السلطان نفسه يستبيح الخروج على الدين والقوانين في سبيل المنافع والمطامع، فلا على الأفراد ولا على الجماعات أن يستبيحوا الخروج على الدين والقوانين في سبيل المنافع والمطامع أيضاً. وما دامت الدول المتحضرة التي بلغت أقصى ما كان الإنسان يستطيع أن يبلغ من الرقي إلى الآن، تستبيح لنفسها أن تزهق النفوس وتسفك الدماء بغير حساب؛ لتكسب المال وتبسط السلطان. فلا على الأفراد والجماعات أن يصنعوا صنيعها ويسيروا سيرتها، ويزهق النفوس ويسفك الدماء في سبيل المنافع القريبة والمطامع اليسيرة. والناس يُحصون صرعى الحربين العالميتين بالملايين، ويُحصون صرعى الثورات الأوروبية بين الحربين بالمئات والألوف، ويُحصون صرعى الاستعمار بعشرات الألوف ومئاتها. وهذه الضحايا الكثيرة لا يُضحى بها من خطأ ولا يُضحى بها في سبيل الحق بالعدل. وإنما يُضحى بها عن عمد وعن استجابة للبغي والطغيان، وفي غير تحرُّج ولا تحفظ ولا احتياط.

وقد قرأت في إحدى الصحف الفرنسية التي وصلت إليّ من باريس في هذه الأيام الأخيرة، أن الفرنسيين قتلوا من أهل الجزائر سنة ١٩٤٥ بعد أن وضعت الحرب العالمية أوزارها، عددًا ضخماً يبلغ المقللون له خمسة عشر ألفاً، ويبلغ المكثرون له أربعين ألفاً، والله يعلم كم يقتل الفرنسيون من الجزائريين في ثورتهم هذه القائمة، وكم قتلوا من التونسيين والمراكشيين، وكم يقتلون منهم أثناء هذا الصراع المتصل بين قوم يريدون أن يعيشوا كراماً، وآخرين يريدون أن يستذلّوهم ويتخذوهم رقيقاً بعد أن ألغت الحضارة الحديثة الرق فيما يقول أصحابها. وضحايا الاستعمار في الهند الصينية من المستعمرين والمناهضين لهم لا يُحصَوْنَ بعشرات الألوف، وإنما يُحصَوْنَ بمئاتها. ومن يدري كم كان عدد الذين ضحى بهم الاستعمار الإنجليزي في شرق الأرض وغربها منذ انقضت الحرب العالمية الثانية إلى الآن.

وأنت لا تقرأ صحيفة في الصباح أو في المساء إلا رأيت فيها حديث الموت الذي يصب في إيران على الذين لا يعجبهم ما كان من الاتفاق على استغلال آبار البترول؛ فقد أصبحت حياة الإنسان في هذا العصر أهون شأنًا وأقل خطرًا ممّا تُخرج الأرض من ثمراتها الحية والميتة. فإذا شخّصت هذا العصر بأنه عصر الحياة الإنسانية الرخيصة والمنافع الإنسانية الغالية، أو بأنه عصر الدم الإنساني الذي لا تبلغ قيمته قيمة البترول الذي يبسط السلطان ويدر المال؛ فلست غالباً ولا متجاوزاً للحق.

وكنت أفكر في هذا كله منذ وقت طويل، وأحمد الله الذي لا يُحمد على المكروه سواه، وأقول لنفسي ولكثير من الناس إننا ما زلنا في عافية ممّا يُمتَحَن به غيرنا من رخص الحياة الإنسانية وغلاء المال والمنافع والمطامع على حقارتها.

ولكن الحضارة الحديثة قد ألغت المسافات والآماد، وقاربت بين الناس على ما يكون بينهم من تباعد الأقطار والديار. وقد كُنَّا نرى ذلك خيرًا ونعده رقيًا ودنواً إلى توحيد العالم أو تخفيف ما بينه من الفروق، وإلى جمع الناس على كلمة سواء وتطهير قلوبهم من الضغن وتخليص نفوسهم من البغي، وتمكينهم من أن يعيشوا إخواناً، يعيشون على ما أباح الله لهم من طيبات الحياة دون أن يستغل بعضهم بعضاً، أو يستذل بعضهم بعضاً، أو يستعلي بعضهم على بعض، أو يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله.

فقد تبين أننا كُنَّا نخدع أنفسنا، ونطمع في غير مطمع، ونتمنى ما لم يُؤنَّ أو أن تحقيقه بعد. وتبيناً أن الشر يغري بالشر، وأن النكر يدعو إلى النكر، وأن الموت يرغب في الموت.

ونحن نصبح ذات يوم، فإذا الهول يتكشف لنا كأشنع ما يكون الهول، وإذا بعض المصريين يمكرون ببعض، وإذا الموت يريد أن يتسلط على مصر كما تسلط على كثير غيرها من أقطار الأرض. وإذا كل واحد منا كان آمناً أمن الغفلة الغافلة، يظن أنه لن يتعرض إلا لما يتعرض له الناس الآمنون من هذه الآفات التي لا يسلطها الإنسان على الإنسان، وإنما تسلطها الطبيعة على الحياة. إننا كُنَّا غافلين حقاً، خدعنا ما عرفناه عن وطننا هذا الوادع الهادئ الكريم، الذي لا يحب العنف ولا يآلفه ولا يحب أن يبلغ أرضه، فضلاً عن أن يستقر فيها. ولمَ لا؟ ألم نشهد منذ عامين اثنين ثورة يشبها الجيش وفي يده من وسائل البأس والبطش ما يُغري بإزهاق النفوس وسفك الدماء، ولكنه يملك نفسه ويملك يده، فلا يزهق نفساً ولا يسفك دمًا، ولا يأتي من الشدة إلا ما يمكن تداركه، ولا يجرح إلا وهو قادر على أن يرفق. وإذا ثورتنا فذة بين الثورات، لا تأتي من الأمر ما لا سبيل إلى إصلاحه غداً أو بعد غد.

كل هذا لأن مصر لا تحب العنف ولا تألفه، ولأن نفوس أهلها نقية نقاء جوها، صافية صفاء سمائها، مشرقة إشراق شمسها، تسعى في طريقها مطمئنةً كما يسعى نيلها مطمئناً ناشراً للخصب والنعيم من حوله، تضطرب فيها الضغائن والأحقاد بين حين وحين. ولكنها لا تلبث أن تثوب إلى العافية كما تثور فيها الرياح فتملأ الجو غباراً، ثم لا تلبث أن تعود إلى الهدوء الهادئ المطمئن.

كذلك عرفنا مصر في عصورها المختلفة، وكذلك رأيناها حين ثار جيشها منذ عامين فأخرج الطاغية، لكنه أخرج موفوراً يحيا كما يحب أن يحيا، مكفوف الأذى عن مصر لم يؤذ نفسه قليلاً ولا كثيراً. واشتد على بعض أبنائها شدة يمكن أن يتداركها باللين في يوم من أيام الصفو هذه التي تعرف كيف تملأ قلوب المصريين حباً ودعة وأمناً وسلاماً. ولكننا نصبح ذات يوم فنستكشف أن فريقاً منا كانوا يهيئون الموت والهول والنكر لإخوانهم في الحياة التي يُقدّسها الدين كما لا يُقدّس شيئاً آخر غيرها من أمور الناس.

ما هذه الأسلحة؟ وما هذه الذخيرة التي تُدخّر في بيوت الأحياء وفي قبور الموتى؟ ما هذا المكر الذي يُمكر؟ وما هذه الخطط التي تُدبّر؟ وما هذا الكيد الذي يُكاد؟ لم كل هذا الشر ولم كل هذا النكر؟ ولم رخصت حياة المصريين على المصريين كما رخصت حياة الجزائريين والمراكشيين والتونسيين على الفرنسيين؟ وكما رخصت حياة الأفريقيين والآسيويين على الإنجليز؟

يقال إن حياة المصريين إنما رخصت على المصريين بأمر الإسلام الذي لم يحرم شيئاً كما حرم القتل، ولم يأمر بشيء كما أمر بالتعاون على البر والتقوى، ولم ينه عن شيء كما نهى عن التعاون على الإثم والعدوان، ولم يُرغب في شيء كما رغب في العدل والإحسان والبر، ولم يُنفّر من شيء كما نفّر من الفحشاء والمنكر

والبغي.

هيهات أن الإسلام لا يأمر بإدّخار الموت للمسلمين، وإنما يعصم دماء المسلمين متى شهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويرى قتل النفس البريئة من أكبر الإثم وأبشع الجرم، وإنما هي العدوى المنكرة جاء بعضها من أعماق التاريخ وأقبل بعضها الآخر من جهات الأرض الأربع التي تُستحل فيها المحارم وتُسفك فيها الدماء بغير الحق، ويُستحب فيها الموت لأيسر الأمر.

جاء بعضها من أعماق التاريخ، من أولئك الذين قال فيهم رسول الله ﷺ إنهم يقرءون القرآن لا يتجاوز تراقيهم، والذين كان أيسر شيء عليهم أن يستبيحوا دماء المسلمين مهما تكن منازلهم في الإسلام، وأن يتخرجوا فيما عدا ذلك تَحْرُج الحمقى لا تَحْرُج الذين يتدبرون ويتفكرون ويعرفون ما يأتون وما يدعون، وجاءهم بعضها الآخر من هذا الشر المحيط الذي ملأ الأرض ظلمًا وفسادًا، من هذا القتل المتصل في الحروب يثيرها بعض الأقوياء على بعض، وفي البطش يصبّه الأقوياء على الضعفاء في البلاد المستعمرة التي يريد أهلها الحرية، ويأبى المتسلطون عليها إلا الخضوع والإذعان والسمع والطاعة، يفرضون ذلك عليها بالحديد والنار.

وأنباء هذا الشر المحيط تملأ الجو من طريق الراديو، وتملأ القلوب والعقول من طريق الصحف، وتثير في نفوس الأخيار حزنًا ولوعة، وفي نفوس غيرهم ميلاً إلى الشر ورغبة فيه وتهالكاً عليه.

لم يأت هذا الشر الذي تشقى به مصر الآن من طبيعة المصريين لأنها في نفسها خيرة، ولا من طبيعة الإسلام لأنه أسمح وأطهر من ذلك، وإنما جاء من هذه العدوى.

والخير كل الخير هو أن نطب لهذا الوباء كما نطب لغيره من الأوبئة التي تجتاح الشعوب بين حين وحين، وقد تعلّم الناس كيف يطبون

للأوبئة التي تجتاح الأجسام وتدفعها إلى الموت دفعًا. فمتى يتعلمون
الطب لهذا الوباء الذي يجتاح النفوس والقلوب والعقول، فيُغريها
بالشر ويدفعها إلى نشره وإذاعته، ويملاً الأرض بها فسادًا وجورًا.
بهذا يأمر الله عز وجل في القرآن العزيز حين يقول في الآية الكريمة:
(وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ
الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ).